

بحث في ماهية السلطة التربوية

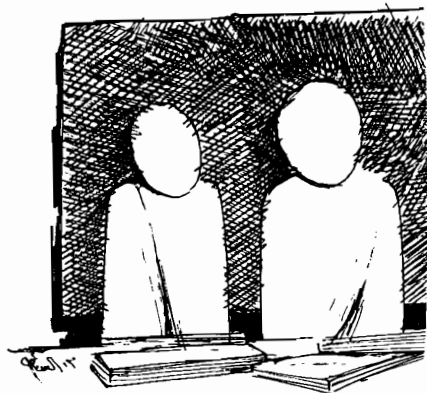
علي أسعد وطفة

مجلة التربية القطرية – مجلة فصلية محكمة

تصدر عن اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم،

عدد 25، السنة 27، يونيو /حزيران، 1998،

(صص 128-132).



بجائت في ماهية السلطة التربوية

د. علي وطفة

الكويت

مسألة السلطة قطب الأهمية المركزية في مجال التربية والحياة الاجتماعية، وتطرح هذه الإشكالية التربوية اليوم نفسها بقوة في خضم المشكلات التربوية التي تواجه المجتمع الإنساني المعاصر.

تحتل

لقد أثارت مسألة السلطة التربوية على مدى المراحل التاريخية جدلاً فكرياً ساخناً ومباحثات تربوية سجلت نفسها في أصل نمو عدد من النظريات التربوية التي تبحث في قضية السلطة التربوية وماهيتها وترصد اتجاهاتها في دائرة صلاتها الدينامية مع أشمل قضايا الحياة الإنسانية وأوسع مجالاتها.

يذهب بعض المفكرين التربويين إلى الاعتقاد بأن التشدد في ممارسة السلطة التربوية يوجد في أصل كل العقد التربوية والاضطرابات النفسية، وعلى هذا الأساس جرى الاعتقاد بأن كل سلطة وكل عقاب يقع على الطفل يؤدي إلى نتائج خطيرة جداً، ومن هذا المنطلق ساد تيار تربوي عالمي يدعو إلى نوع من التسامح التربوي غير المحدود والذي بموجبه يترك للأطفال الحبل على الغارب ليفعلوا ما يرغبون به بعيداً عن كل سلطة أو تدخل من الراشدين، لأن السلطة قد تؤدي كما يذهب أنصار هذا الاتجاه إلى هدم البناء النفسي والتربوي عند الناشئة والأطفال.

وعلى خلاف الاتجاه السابق يمكن الإشارة إلى اتجاه تربوي مغاير تماماً يدعو أصحابه إلى توظيف فعال للسلطة التربوية في تربية الناشئة والأطفال رغم التحذيرات التربوية التي ترى في هذا الأسلوب التربوي ما يهدد إمكانيات النمو المتكامل عند الأطفال. ومع ذلك يكاد يجمع علماء النفس الحديث اليوم على إدانة أسلوب التسلط وهم في سياق ذلك يتفقون على أن التسلط يشكل واحداً من أبرز وأخطر المشكلات التربوية التي تعيق النمو النفسي للطفل والتي تؤدي إلى ردود فعل بالغة السلبية عند الطفل.

وإذا كانت إشكالية السلطة التربوية تهاجم عقول المفكرين وتحدي إمكانيات التنظير لديهم فإن المعاناة التي تطرحها في ميدان التجربة وفي مستوى الممارسة تجعل من تجارب المربين مصدراً لكل معاني البؤس والشقاء. فالربيون يعيدون غالباً النظر في عقائدهم التربوية وقناعاتهم الفكرية ويجدون أنفسهم في مواجهة.

وتكمن الإشكالية كما نعتقد في ضبابية مفهوم السلطة وعدم القدرة على اكتناه مضامينه الإنسانية والاجتماعية، فممارسة السلطة لاتعني في كل الأحوال تسطاً. وهذا يعني أن ممارسة السلطة أمر يحتاج إلى ذكاء وخبرة، فالسلطة لاتعني القهر إذ قد تكون عنصراً جوهرياً في عملية الحب والتسامح.

فالتربية لاتقوم على أساس السلطة بل على أساس الذكاء الذي ينطلق من المحبة، والحياة من غير الغفران والتسامح تتحول إلى صراع من أجل بقاء الشخصية، لقد علمنا الذكاء والحب أن التربية لاتكمن في السلوك السلطوي وذلك وفقاً للطريقة التقليدية. إن احترام الحرية الداخلية للفرد يجب أن تشكل المنطلق الأساسي لممارسة السلطة التربوية وهي السلطة التي تبدو على غاية الأهمية من أجل الفعل التربوي.

لايمكن للتربية أن تجري من غير سلطة فالسلطة التربوية تكمن في أصل الفعل التربوي وتشكل منطلق وجوده. وفي معرض الحوار مع هؤلاء الذين ينتصرون لفكرة التربية من غير سلطة، نقول بأنه ليست هي السلطة بحد ذاتها السبب في بناء العقد النفسية عند الأطفال وإنما تنشأ العقد النفسية كنتيجة لغياب الحب الضروري لعملية نمو الأطفال وازدهارهم.

إن العنف الذي يمارس ضد الأطفال والذي يتنافى مع الحب والاحترام يؤدي إلى جروح نرجسية وجودية تنال من كرامة الطفل ومن وجوده المعنوي وتؤدي إلى الإضرار بحياة الطفل ووجوده.

السلطة التربوية ضرورية للإحساس بالأمن:

يعتقد الربيون أن سلطة الراشد على الطفل فعل تربوي طبيعي لايقبل المناقشة أو الجدل، والطفل نفسه يشعر باهمية السلطة وبيحث عنها كضرورة حيوية لوجوده الاجتماعي. يلاحظ في المدرسة على سبيل المثال أن المعلم الذي يترك الأطفال وشأنهم

يفعلون ما يشاؤون ليس هو المعلم الذي يحظى بحب الأطفال بدرجة أكبر، فالأطفال يقدرون عالياً أهمية السلطة التي يمارسها الراشدون. ويأتي هذا التقدير للسلطة نتاجاً طبيعياً لحالة الضعف الفيزيائية وغياب النضج العقلي عند الأطفال: فوجود السلطة يلبي حاجة جوهرية عند الطفل حيث تضمن له الإحساس بالأمن الفيزيائي والعاطفي والإنساني.

وليس من الضرورة أن تلج على أهمية الأمن الفيزيائي للطفل وذلك بالقياس إلى أهمية الأمن العاطفي والانفعالي عند الأطفال، فأكثريّة الآباء حتى متوسطي الذكاء منهم يعرفون كيف يفرضون على أطفالهم قوانين الحياة الصحية وضرورة الحذر والوقاية من المخاطر التي تحيق بوجودهم الفيزيائي وبصحتهم. وإنه لمن المؤسف حقاً في كثير من الحالات أن يعتقد بأن مهمة التربية تتمركز في هذا الاتجاه.

فالطفل يحتاج إلى الأمن الأخلاقي والعاطفي والإنساني وذلك من أجل المحافظة على التوازن الوجودي وهذا هو هدف التربية الأساسي الذي يطمح إلى تحقيق الرصانة الأخلاقية والتماسك الانفعالي عند الأفراد، وذلك من شأنه أن يؤدي إلى صون الواجبات الأخلاقية وصوغ القيم الإنسانية السامية.

وهنا يبرز واجب المربين في نقل هذه القيم الأخلاقية، وغرسها في نفوس الأطفال لتستقيم لهم حياتهم الاجتماعية والروحية. ومع ذلك فإن التعريف بالقانون الأخلاقي ليس كافياً بل يجب أن يؤصل في وجدان الأطفال وأن يجسد في سلوكهم، فإرادة الطفل غير كافية وليست أكيدة فهو يحتاج إلى عملية تدريب ومواظبة، ومن المؤسف أن مفهوم الواجب ما يزال غامضاً في مستوى المؤسسات التعليمية، وأن التعليم لايقرن بين هذا المفهوم وبين السلوك المرغوب، وهنا تلعب سلطة المربي دوراً كبيراً في تطوير مفهوم الواجب في عمق الوجود الأخلاقي للطفل. وذلك من شأنه أن يشعر الطفل بقوة أنه يسير على طريق الرشد عارفاً أن الإرادة القوية الناجمة عن السلطة تعزز إرادته الشخصية في حالة الضعف والقصور.

والطفل يدرك جيداً طبيعة هذا التأثير الدفاعي والوقائي والذي تمارس السلطة التربوية، وهو في كل الأحوال ليس جاهلاً إلى حد كبير بما يجري حوله، فهو يدرك أن السلطة هي عطاء حب ودفق محبة، إذ كانت في مكانها الصحيح. فهي تسعى لحماية الطفل وتحقيق نمائه وتفتحه.

والسؤال هنا هو كيف يحصل المعلم الجيد الذي يأمر بقوة على احترام الأطفال وحبهم، فالسلطة تلعب دوراً في تحقيق الأمن بالنسبة للأطفال، إن حساسية الأطفال تفوق حساسية الكبار بشفافيتها وقابليتها للتأثر، فهي حساسية نشطة بريئة ونامية، وهذه الحساسية يمكن أن تكون بالغة ومفرطة جداً ومزضية أحياناً، ويمكنها أن تكون أكثر تأثراً بالحساسية، فالانطباعية والغيرة والأنانية هي مشاعر قد تخل بتوازن الطفل

وتؤثر على حياته العائلية والأطفال يعانون إلى حد كبير وطاة هذه المشاعر. وإذا كانت مشاعر الحب والصبر والحنان ضرورية من أجل حماية الطفل من هذه الاضطرابات، فإنه يمكن للسلطة أن تسهم بقسط كبير في إطار هذه العملية، فالسلطة تفرض على الطفل قواعد الحياة الصحية والفيزيائية والعقلية وهي في الوقت نفسه تمنحه هذا الإحساس العميق بالثقة في قوة الراشدين وحمايتهم، ومع ذلك فإن ممارسة هذه السلطة يجب أن لا تكون على حساب بعض أفراد الأسرة الآخرين، ويجب أن نعلم أن الحالة التي يحتكر فيها أحد أطفال الأسرة اهتمام السلطة الأسرية لوحده قد يخل بشروط الأمن الأخلاقي عند أخوته وأخواته في إطار الأسرة، ولاسيما الأمن النفسي. إن مشاعر القلق والإحباط الناجمة عن الأثرة قد تؤدي إلى ولادة الحقد والكراهية بين الأطفال الأخوة وتنمي لديهم نوازع الصراع والمنافسة العاطفية الموجهة إلى الأبوين، ومن هنا يترتب على الآباء أن يعرفوا كيف يوزعون حبهم واهتمامهم على أطفالهم بصورة عادلة وكيف يمكنهم أن يوجهوا طاقات أطفالهم نحو قيم جديدة، وتلك هي مسألة عدالة ولا يمكن للعدالة أن تتحقق يوماً من غير حد أدنى من السلطة.

وفي النهاية يمكن القول أن التاهيل العقلي للطفل مرهون إلى حد كبير بانطباعات الثقة والأمن التي تسود في الأجواء التربوية، فالطفل ليس في مستوى القدرة على إبداء مشاعر الشك العقلي والنقد المنهجي ولكنه في، وتصون حقوق الطفل في امتلاك بعض الحرية في ممارسة أفعاله وأعماله، وضرورة الثقة والصراحة المتبادلة بين الطرفين. ينطوي مفهوم السلطة الذي يعبر عن القدرة على التأثير والقيادة والمنع على مفهومين أساسيين يمثلان نوعين من الممارسة المختلفة.

يمكن في البداية الإشارة إلى السلطة الشرعية وهي السلطة التي تنال تأييد القانون الذي يمنحها إمكانية وواجب إنزال العقاب، فهي هنا السلطة التي تمثل القانون وتمارس على المواطنين لحمايتهم وتأمين شروط وجودهم الإنساني والاجتماعي. وعلى خلاف السلطة الشرعية يمكن الإشارة إلى نوع آخر من السلطة العفوية والتلقائية التي تحددها المشاعر وتنبع من صلب العواطف والتي تسجل حضورها بعيداً عن نوايس العقاب والقوة. هذه السلطة تنبع من مشاعر الناس وقناعاتهم واعتباراتهم الخاصة. ويلاحظ في هذا السياق أن الزعيم يحظى بأهمية أكبر كلما كانت سلطته تميل إلى أن تقوم على أساس الاعتبار والتقدير. وهو غالباً ما يحكم عليه بأنه جدير بذاته وجدير بهؤلاء الذين يمارس عليهم سلطته.

فالسلطة الشرعية تقوم على أساس القوة وبالتالي فإن القوة تمارس على الناس وليس على الأشياء المادية. ولكننا عندما نريد أن نفرض إرادتنا على الطبيعة يجب علينا في البداية أن نحترمها وأن ندرسها وأن نتعامل معها بصبر وبأساليب ذكية بارعة. ولكن عندما نحاول أن نناهض قوانين التوازن في الطبيعة سنواجه صعوبات وتحديات ليست

في الحسبان. إن غيوم الغبار والتلوث البيئي يطرح نفسه استجابة الأرض ضد الاستخدام غير المتوازن لموارد الأرض، وهذا المثال واحد من البراهين التي تقول بأنه لا يمكن لنا أبداً أن نسيطر على الطبيعة إلا إذا خضعنا لها، ونحن عندما نفرض إرادتنا بالقوة على الكائنات الإنسانية الذكية فإننا ندفعها إلى دائرة السلبية والتمرد. فالسلطة المفروضة التي تعتمد على القسر تجعل الخاضع لها سلباً وهي في هذه الحالة عامل قهر ونظام وليست أداة تعمل على بقاء الإنسان وتطوره، فالقانون وفقاً لهذه الرؤية يعمل على إنزال العقاب بالمجرمين وحماية الحقوق الشرعية ولكنه من هذه الزاوية لا يعمل على تحقيق النمو الأخلاقي أو الاجتماعي أو بناء الذكاء. وإذا كانت التربية بحث عن التقدم والبناء فإنها لا تتوافق مع مفهوم السلطة التي تعتمد مبدأ القسر. وهنا يترتب على السلطة التربوية أن تكون صورة أخرى وحالة أخرى مختلفة.

تبين التجارب التربوية أن الشخص الذي ينال حب الطفل وتقديره هو الوحيد الذي يستطيع أن يؤثر في الطفل، وأن يعمل على تطوير ذكائه. فالطفل لا يستطيع أن يفصل بين إعجابه وحبه، وهو لا يمتلك القدرة النقدية الكافية لتنفيذ أسباب حبه وإعجابه، وهو يدين بذكائه إلى هؤلاء الذين أحبههم ويحبهم بالدرجة الأولى وهو في الوقت نفسه يرفض كل تعاون مع الأشخاص الذين لا يحبهم ومع ذلك فإن المعلمين والمربين يجهلون ومع ذلك يمكن القول بأن السلطة التي تقوم على الحب والتقدير قد تؤدي إلى بعض المجازفات الضارة بشخصية الطفل وذلك لأنها غالباً ما تكون مشحونة بالذاتية وهي تنطوي على مخاطر التداخل بين شخص المعلم وبين ما عليه، فالأطفال يبحثون عن شخصيات يعجبون بها ويتوحدون معها وغالباً ما تكون هذه الشخصيات هي شخصيات المعلمين والمربين.

الحواشي :

- ١ - جالبريث، جو كينيث : تشريح السلطة، ترجمة عباس حكيم، مؤسسة كورجي، دار المستقبل، دمشق ١٩٩٥.
 - ٢ - بورديو - بيبير : العنف الرمزي : بحث في أصول علم الاجتماع التربوي، ترجمة نظير جاهل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٤.
 - ٣ - بورديو - بيبير : الرمز والسلطة، ترجمة عبد السلام بن عبد العالي، المعرفة الاجتماعية، الدار البيضاء، ١٩٩٠.
 - ٤ - بلاس - توماس : العنف والإنسان، ترجمة عبد الهادي عبد الرحمن، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٠.
 - ٥ - بلاس - ليلي : العنف الأسري، دار المدى، بيروت، ١٩٩٤.
 - ٦ - برنو - فيليب وآلان بيرو وأدمون بلان وميشيل كورناتون وفرنسوا لوجاندر وبيير فيو : المجتمع والعنف، ترجمة اياس زحلاوي وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٥.
- 7 - Bertherat Yve: Psychanalyse de la violence, desclées, Paris 1967.